obeikandi.com

ألبانيا ١٩٤٩ - ١٩٥٣
الجاسوس الإنكليزي بامتياز

قال أحد الذين كتبوا سيرة حياة (كيم فيلبي Kim Philby) [(١)]: «إن وضع خطة هذه المغامرة الفاشلة وتخريبها في آن واحد كانا حتماً اختباراً قاسياً لطاقته وذكائه». أما المغامرة فقد كانت المحاولة السرية، التي بدأت في عام ١٩٤٩ من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى للإطاحة بنظام حكم أنور خوجا الموالي للسوفييت عن طريق انتفاضات تطلقها حرب عصابات.

انتهت المغامرة بكارثة، ويعود السبب جزئياً إلى أن الروس كما ظهر قد نبههم فيلبي، الرجل الإنكليزي بامتياز، الذي تعلّم في جميع المدارس اللائقة واخترق أرفع أوساط المخابرات البريطانية والأمريكية، مع أنه كان قد صار جاسوساً سوفيتياً وهو في سن الواحد والعشرين.

كان فيلبي قد انتقل في العام السابق إلى واشنطن بصفة ضابط ارتباط المخابرات البريطانية (SIS British secret Intelligence Service) لدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وهو بهذه الصفة عمل مديراً شريكاً Condirector لمجموعة (CIA - SIS) المكلفة بالتخطيط لعملية ألبانيا. وكان قد وقع الخيار على ألبانيا لأنها اعتبرت الأسهل إصابة بين الدول الاشتراكية وأصغرها وأضعفها، وليست لها حدود مشتركة مع الاتحاد السوفييتي، وهي معزولة بين اليونان الخاضعة لإشراف الولايات المتحدة، ويوغسلافيا التي كانت متمردة على الكتلة السوفييتية. علاوة على ذلك، كانت قد عقدت مؤخراً اتفاقية بين الاتحاد السوفييتي وألبانيا تقضي بتقديم مساعدة إلى ألبانيا لقاء منح السوفييت حق بناء قاعدة غواصات لها

اتصال مباشر بالبحر الأبيض المتوسط [٢] إن قواعد ومنطق لعبة الحرب الباردة كانت تقضي بأن تحبط الولايات المتحدة هذه الخطوة.

بدأت مجموعة العمل بتجنيد المهاجرين الألبان المبعثرين الذين كانوا يعيشون في اليونان وأماكن أخرى، وهؤلاء جرى إخضاعهم لتدريب عسكري أساسي، من ضمنه تدريب على حرب العصابات، وذلك في مواقع أقيمت في جزيرة مالطا البريطانية في البحر الأبيض المتوسط، وفي القطاع الذي تحتله أمريكا في المانيا الغربية، وبدرجة أقل في انكلترة ذاتها[٣] لقد قال فرانك وازنر Frank Wisner رئيس قسم العمليات السرية في وكالة المخابرات المركزية متحدثاً إلى فيلبي، ومؤتمناً إياه على هذا السر: «عندما نريد تقويض أي مكان نجد أن البريطانيين يملكون جزيرة في متناول اليد»[٤].

كان يتم إعادة المهاجرين إلى وطنهم بصورة متقطعة، وعلى مدى نحو ثلاث سنوات ونصف السنة، متسللين إلى جبال اليونان ثم يجتازون الحدود أو يتم إنزالهم بالمظلات من طائرات تنطلق من قواعد في أوروبا الغربية، أو يدخلون ألبانيا بحراً من إيطاليا. وكانت طائرات ومناطيد أمريكية تلقي من الجو نشرات دعائية ومواد نادرة الوجود في ألبانيا، كالطحين والحلاوة والإبر وشفرات الحلاقة مرفقة بقصاصة ورق كتب عليها أن هذه المواد هدية من «جبهة التحرير الوطني الألبانية» [٥] وهذا مثال آخر على أسلوب «التسويق» الذكي الذي أوجدته وكالة المخابرات المركزية في الولايات المتحدة واستخدمته في العديد من عملياتها.

الخطة، الأمل، كانت في مجملها تقضي بإيصال رجال العصابات إلى المناطق القديمة في وطنهم لكي يحاولوا إثارة المشاعر المعادية للسوفييت وللشيوعيين مما يؤدي بالتالي إلى انتفاضات. كان على رجال العصابات أن يوزعوا النشرات الدعائية، وأن يجمعوا معلومات سياسية واقتصادية وعسكرية وأن يمارسوا أعمالاً تخريبية وأن يجندوا أفراداً في خلايا ويزودوهم بمعدات. ومع زيادة عدد الرجال وكميات المواد لاحقاً كانت هذه الخلايا تتوسع لتصبح «مراكز مقاومة»[٦].

وكان الرأي التقليدي السائد في الحرب الباردة أن جماهير أوروبا الشرقية كانت تنتظر من يطلق ضمنها شرارة ثورة علنية للحصول على حريتها. وحتى لو كان هذا هو واقع الأمر، فإن اختيار إشعال نار الثورة كان مشكوكاً فيه إلى حد كبير، لأنه كان بين رجال العصابات كثيرون من المؤيدين لاستعادة العرش الألباني في شخص الملك زوغو الرجعي الذي كان يعيش في المنفى، وآخرين ممن سبق لهم أن تعاونوا مع الفاشيست الإيطاليين أو مع النازيين عندما كان هؤلاء يحتلون ألبانيا في زمن الحرب.

لا ريب في أنه كان في مختلف لجان المهاجرين من هم أصحاب ميول جمهورية وديموقراطية، ولكن أوراق وزارة الخارجية الأمريكية، التي رفعت عنها السرية لاحقاً تكشف أن عملاء ألباناً بارزين لعبوا أدواراً قيادية في تشكيل هذه اللجان. كان هؤلاء أفراداً وصفتهم وزارة الخارجية الأمريكية بأنهم أصحاب خلفيات سياسية متنوعة نوعاً ما، وأنهم «عاجلاً أو آجلاً» سيسببون حرجاً للحكومة». وقد سُمح لهؤلاء بدخول الولايات المتحدة رغم اعتراضات وزارة الخارجية العائدة إلى «اعتبارات استخبارية». أحد هؤلاء السادة المتنوعين كان (خافر ديفا hafer Deva) وزير الداخلية في زمن الاحتلال الإيطالي والذي كان مسؤولاً عن ترحيل «اليهود والشيوعيين والوطنيين والأشخاص المشبوهين» (وهذا ما بيّنه تقرير نازي تم الاستيلاء عليه) إلى معسكرات الإبادة في بولندا[٧].

بدأت محطة إذاعة سرية قوية، باسم اللجنة الوطنية من أجل ألبانيا الحرة، وبتمويل من وكالة الاستخبارات المركزية، البث داخل البلاد، داعية إلى تحرير الدولة من الاتحاد السوفييتي.

في مطلع العام ١٩٥١ صدرت أخبار عديدة من ألبانيا عن مقاومة منظمة وانتفاضات علنية[٨]. أما إلى أي مدى كانت هذه الأمور تحدث نتيجة للتسلل والتحريض الغربي، فهذا أمر يستحيل البت فيه. وفوق ذلك لم يكن في الحملة إلا القليل لإبراز جهودها. فقد كانت طوال الوقت ملاحقة بأخطاء لوجستية وبالواقع الكئيب فيما يتعلق باستقبال جماهير الألبانيين للمهاجرين كأناس أدنى من محررين،

obeikandl.com

إما بسبب الخوف من نظام حكم أنور خوجا القاسي، أو لأن هذه الجماهير كانت تدعم التبديلات الاجتماعية الجارية أكثر مما تثق بما يعرضه المهاجرون.

أسوأ الأمور أن السلطات الألبانية كانت تبدو عادة على علم بالمنطقة التي سيصل إليها رجال العصابات، وموعد وصولهم. لم يكن كيم فيلبي المصدر المحتمل الوحيد لكشف هذه المعلومات. فقد كان من المؤكد تقريباً أن المجموعات الألبانية مخترقة، كما أن ثرثرة المهاجرين الحمقى يمكن أن تكون أسهمت في حدوث الفضيحة. إن فيلبي، في إشارة منه إلى عادة أعضاء مجموعة (CIA. SIS) في السخرية من الألبان كتب يقول: «حتى في أشد اللحظات جدية، كنا نحن الانكلو-سكسون ننسى أن عملاءنا كانوا يتربصون على مسافة قصيرة من الأشجار»(٩).

كان الأمن متراخياً إلى حد أن (سايروس سولزبيرغر Cyrus Sulzberger)، مراسل جريدة «نيويورك تايمز»، أرسل عدة رسائل من منطقة البحر الأبيض المتوسط تدور حول التدخل ولا تحتاج فعلياً إلى قراءة بين السطور(١٠) (لم تحمل مقالاته عناوين رئيسية لافتة للانتباه، ولم تعلق عليها واشنطن بصورة علنية، ولم يطرح أحد من المراسلين أي سؤال محرج على مسؤولي الحكومة.. وبالتالي: «لا وجود لحدث» (بالنسبة للأمريكيين).

بالرغم من الإخفاقات المتتابعة الواحد بعد الآخر، وبدون سبب وجيه لتوقع أي شيء مختلف في المستقبل، استمرت العملية حتى ربيع العام ١٩٥٣ وتسببت في موت أو سجن مئات الرجال. لم يكن الأمر ببساطة هوس بتر أحد أصابع ستالين. لقد استُثمرت الوجاهة المهنية وسير الحياة المهنية وكانت هناك حاجة لنجاح ملحوظ في «إعادة تجميع الخسائر السابقة» و «تبرير القرارات الصادرة»(١١).

إن الرجال الذين خسرتهم الحملة كانوا ألبانيين فقط، ولا يعرفون كلمة واحدة من لغة الملكة الانكليزية ولم يكونوا يعرفون السير مرفوعي القامة.

obeikandi.com

غيـر أنه كـان هناك خطر تصـاعد العمليـة إلى نزاع مع الاتحـاد السوفييـتي. والواقع أن السـوفـيـيت أرسلوا بعض الطائرات المقـاتلة الجـديدة إلى ألبـانيـا، بما يفترض أنه أمل في أن يتمكنوا من إسقاط الطائرات الأجنبيـة المغيرة[١٢]. ولم يكن من الممكن أن تخفق هذه العمليـة في تذكيـر سـتـالين وأنور خـوجـا وكـامل الكتلة الاشتراكية بتدخل غربي آخر كان قد حدث قبل ثلاثين عاماً في الاتحاد السوفييتي. كل ما كانت تفعله هذه العملية هو أنها تزيد هذه الأطراف شعوراً بالخوف من النوايا الغربية وأن تقنعها بزيادة إحكام إجراءات الأمن الداخلي. والحقيقة أن أنور خوجا كـان لا يفـتـأ خـلال السنين اللاحـقـة بالحديث عن «الغـزو» الأمـريكي والبـريطاني واستخدام هذه الكلمة لتبرير سياسة العزلة التي اتبعها[١٣].

في مطلع السـتينيـات من القـرن العـشـرين فعل أنور خـوجـا مـا فـشلت وكـالة الاسـتـخبـارات المركزية والمخابرات البـريطانيـة في فعله: لقـد أخـرج ألبـانيـا من فلك الاتحاد السوفييتي. وقام هذا الزعيم الألباني بتطهير حكومته من المسؤولين الموالين للاتحـاد السوفييـتي وانحاز ببلاده إلى الصين. لم يكن هنـاك عمل انتقامي عسكري من جانب الاتحـاد السوفييتي. وفي منتصف السبعينيات من القرن العشرين «تخلى أنور خوجا عن الصين أيضاً».